السورة الثامنة

الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾

هذه هي السورة السابعة في الترتيب القرآنيّ الذي اعتمدناه لهذه الدراسة، وهي أقصر سورةٍ في القرآن، فلا يتجاوز عدد ألفاظها العشرة، ولكننا سنجد فيها ما لا يقلّ عن ١٥ موقعاً إعجازيّاً جديداً أدخله القرآن في معجمنا العربيّ لأوّل مرّة.

وتستمدّ السورة شخصيّتها اللغويّة من انفرادها بتعدية الفعل (صلِّ) باللام خلافاً للمرّات الإحدى عشرة الأخرى التي تكرّر بها هذا الفعل في القرآن، وتستمدّها كذلك من أنّ ألفاظها جميعاً بعد ذلك، ما عدا الأدوات واللفظ (ربّ)، قد انفردت بها من دون سائر سوَر القرآن الكريم، وهي (أعطيناك، الكوثر، وانحر، شانئك، الأبتر)، وتستمدّها أخيراً من التعبيرات التي استقلّت بها عن غيرها من السور، وهي تغطّي في الحقيقة التعبيرات الثلاثة التي تقوم عليها السورة (أعطيناك الكوثر، صلِّ لربّك وانحر، شانئك هو الأبتر).

ولكنّ أهمّ ما يميّز السورة أنّها، من بين السور التي درسناها حتّى الآن، أوّل سورةٍ يظهر فيها ضمير المتكلّم (أو المتكلّمِين) العائد على الجلالة الإلهيّة. لقد كان الضمير الإلهيّ في السوَر التي درسناها حتّى الآن:

أ- إمّا مختفياً خلف أفعال أمرٍ صادرةٍ عن مجهولٍ لم يُذكَر أبداً في السياق:
﴿قُلْ أَعُوذُ ...﴾ ﴿قُلْ هُوَ ...﴾ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ...﴾

ب- وإمّا مضمراً تحت صيغةٍ حياديّةٍ/ غائبةٍ تتحدّث "عنه"، أي عن شخصيّة المتكلّم "هو" من غير أن يكون الضمير ظاهراً بنفسه، ولا مقدّراً إعرابيّاً:
﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ...﴾ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ...﴾ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ...﴾
﴿رَبِّ ٱلنَّاسِ ...﴾ ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ...﴾ ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ...﴾ ﴿رَبِّ ٱلْفَلَقِ ...﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ...﴾

ت- أو ضميراً مفرداً غائباً صريحاً (هو)، ظاهراً أو مقدّراً إعرابيّاً، لا يلفّه ثوب الحياد كما يلفّ الآيات السابقة: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ...﴾ ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ...﴾ ﴿لَمْ يَلِدْ ...﴾ ﴿وَلَمْ يُولَدْ ...﴾ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا ...﴾ ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ...﴾

وكثيراً ما يتوارى الضمير الإلهيّ في القرآن الكريم خلف أساليبَ بلاغيّةٍ ونحويّةٍ متعدّدةٍ تساعده على الاختفاء. فتأتي صيغة الغائب المطاوِعة الحياديّة المجرّدة ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا﴾ بدلاً من صيغة المتكلّم الصريحة (سأُصليه ناراً)، أو تحلّ صيغة الحال الحياديّة المجهولةُ العامل ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾، ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ محلّ صيغة الفاعل الحقيقيّ (سأجعلها تحمل الحطب، سأجعل في جيدها حبلاً من مَسَد)، أو تحلّ صيغة المبنيّ للمجهول الذي تَوارَى فاعلُه ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ ، ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾، كما سوف يمرّ بنا في السوَر القادمة، محلّ المبنيّ للمعلوم الذي يظهر فيه الفاعل عادةً بوضوح (سأنبُذُه في الحُطَمَة، سأسألُكم يومَئذٍ عن النعيم ..).

وسنعرف أنّ الضمير الإلهيّ للمتكلّم في القرآن يميل غالباً إلى الظهور، حين يظهر، في صيغة ضمير الجماعة ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ والأقلّ من ذلك بكثيرٍ أن يظهر في صيغة ضمير المفرد. وعلينا أن ننتظر طويلاً، لو كان لبحثِنا أن يمتدّ في أعماق هذا الجزء الثلاثين من القرآن، قبل أن نصل إلى سورة (الفجر) ليفاجئنا هناك أوّلُ ضميرِ متكلّمٍ إلهيٍّ مفرد ﴿فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾. أما

ضمير الغائب العائد عليه تعالى فلا يكون في القرآن إلاّ مفرداً (هو) ولا يمكن أن يأتي في صيغة الجماعة (هم).

ومن الواضح أنّ ضمير المتكلّم المفرد الصادر عن الله تعالى (أنا) يتميّز بحميميّةٍ خاصّة، فنحسّ معه أنّنا أكثر قرباً إلى المتكلّم (الله)، ولذلك يغلب أن نجده في الآيات الأكثر تعبيراً عن عمق العلاقة الخاصّة بين الله وعبده، كما في الآيات:

- ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦]
- ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الحِجْر: ٤٩ - ٥٠]
- ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه: ١٢]
- ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الزُمَر: ٥٣]
- ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣١]

إنّ موضوع الضمير العائد عليه تعالى في القرآن الكريم موضوعٌ شائقٌ وشائكٌ حقّاً، ويجدر بالدارسين إفراده في بحثٍ مستقلٍّ. ومن المهمّ هنا أن نذكر حقيقةً غريبةً تتعلّق بلغة الكتب السماويّة الثلاثة، وهي اقتصار استخدام صيغة جماعة المتكلّمين (إنّا، نحن) على لغة القرآن الكريم وحده للتعبير عن ذاته تعالى دون العهدين القديم أو الجديد، ولو ألممنا إلمامةً متأنّيةً ومتفحّصةً للغة التوراة والإنجيل لوجدناها تقتصر فيهما على صيغة المتكلّم المفرد وحدها دون ضمير الجماعة للتعبير عن الذات الإلهيّة (إنّي، أنا).

أوَّلاً: الألفاظ والمصطلحات

فصّلنا في الجزء الأوّل من هذا البحث الحديث عن قيمة اللفظ الجديد عند الأوائل، وكيف أسبغ العرب على بعض شعرائهم ألقاباً اتّخذوها لهم من لفظٍ واحدٍ غريبٍ أتى به هؤلاء الشعراء في شعرهم، ولا سيّما إذا وقع هذا اللفظ موقعه في العقول والقلوب، وسار على ألسنة الناس.

إنّ هذا يساعدنا على أن نفهم بشكلٍ أوضح موقفَ العربيّ وهو يفاجأ بثلاثة ألفاظٍ تحمل معاني جديدةً تحتشد كلّها في سورةٍ صغيرةٍ كهذه مؤلّفةٍ من عشر كلمات:

١- الكوثر:

لم أجد هذا اللفظ في الشعر الجاهليّ أبداً، ويؤكّد ذلك ما وقع من خلافٍ كبيرٍ بين المفسّرين حول معناه.

وقد ذهب أكثرهم إلى أنه نهرٌ في الجنّة يتشعّب منه جميع أنهارها، وقيل إنه الحوض الذي يدعو الرسول ﷺ المسلمين للشّرب منه يوم القيامة، وقيل هو القرآن، أو النبوّة، أو كثرة الذرّية، أو الخير الكثير (فاللفظ مشتقٌّ من الكثرة).

وذكر القرطبيّ له ستّة عشر معنىً، ووصل بعضهم بهذه المعاني إلى ستّةٍ وعشرين.

ويقتصر ورود اللفظ على هذه السورة وحدها دون غيرها في القرآن الكريم.

٢- وانحر:

ذكر له المفسّرون أكثر من معنى، ومعظم هذه المعاني يدلّ على جِدّة استعمال اللفظ وقرآنيَّةِ.

فعلى رأس المعاني أنّه دعوةٌ لأداء صلاة النحر، أي عيد الأضحى، وهو أمرٌ لم يعرفه العرب قبل الإسلام طبعاً.

ومن معانيه وضع اليد اليمنى فوق اليسرى على النحر؛ أي الصدر، أثناء الصلاة، وهو أيضاً أمرٌ غير معروفٍ قبل فرض الصلاة على المسلمين.

وقيل إنه رفع اليدين إلى مستوى النحر عند كلّ تكبيرةٍ في الصلاة. كما قيل إنه الذبح يوم العيد، فكأنّها في هذه الحال دعوةٌ إلى ذكر الله عند ذبح الأضحية، أي: فصَلِّ وانحر لي وليس لغيري كما كان يفعل المشركون، أو هي دعوةٌ إلى ذبح الأضحية أو النُسُك بعد صلاة العيد لا قبله، وقيل أيضاً إنها دعوةٌ للتوجّه بالنحر نحو القِبلة في الصلاة.

والغريب أنّنا لا نعثر على هذا الفعل مرةً أخرى في القرآن، ولا على أيٍّ من مشتقّاته، فهو أيضاً من خصوصيّات هذه السورة.

٣- الأبتر:

نجد هذا اللفظ مرّةً واحدةً في الشعر الجاهليّ، ولكن في غير المعنى القرآنيّ، لأنه هناك وصفٌ للسيف (القاطع) وهو في بيت عنترة (ت ٢٢ ق.هـ):

فشككتُ هذا بالقنا وعلوتُ ذا مَعَ ذاكَ بالذَكَرِ الحُسامِ الأبترِ

أما في القرآن فهو، تبعاً لأكثر المفسّرين، الذي لا عقِب له، أي سلالة. ولكن من معانيها أيضاً الحقير والذليل والمنقطع من الخير والمقطوع الذنَب.

وقد قال أناسٌ من قريش (ذُكر أنه العاص بن وائل السهميّ) حين توفّي ولدا الرسول ﷺ واحداً بعد آخر: إنّ محمداً صُنبورٌ، أي مقطوعٌ من النسل ولا ولد له، فإذا مات انقطع ذِكره، فأنكر الله عليهم ذلك بهذه السورة.

ومرّةً أخرى يقتصر ورود هذا اللفظ على سورة (الكوثر) فهو أحد عناصر هويّتها اللغويّة أيضاً. ولا يرِد اللفظ في الحديث الشريف إلاّ في معنىً آخر بعيدٍ عن المعنى القرآنيّ، وذلك في وصف بعض أنواع الحيّات: "اقتلوا الحيّات وذا الطفيتين والأبتر فإنّهما يستسقطان الحَبَل ويلتمسان البصر".[1]

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٤، ص١٧٥٢، حديث رقم: ٢٢٣٣.

ثانياً: الصيغ والعلاقات اللغويّة

١- إنّا أعطيناك:

من السهل أن نعثر في الشعر الجاهليّ على أبياتٍ تبدأ بالضمير (إنّا) الذي بدأت به الآية، كبيت النابغة الذبياني (ت١٨ ق.هـ):

إنّا اقتسمنا خطّتينا بيننا فحملتُ بَرَّةَ واحتملتَ فَجارِ

ولكن من الواضح أنّ النابغة أراد نفسه بضمير الجماعة (إنّا) مع شخصٍ آخر ينافسه، وليس شخصه وحده. فهذه الأبيات الجاهليّة، على قلّتها، لم تعرف الابتداء بضمير جمع المتكلّمين المقصود به صيغة المفرد.

ربما اعتاد الملوك في ذلك العصر أن يتحدّثوا عن أنفسهم بصيغة الجمع، ولكنّ هذا النوع من الحديث، لو ورد، فسيرِد في قراراتٍ أو توصياتٍ أو إعلاناتٍ ملكيّةٍ ليس غير، وهو عادةً صيغةٌ ترمز إلى مجموع الأمة التي يمثلها ذلك الملك، كمثل قولنا:

نحن كسرى عظيمَ الفرس نأمر بما يلي..

على حين جاءت الجملة القرآنيّة، شأن كثير من الآيات المشابهة، إخباريّةً إعلاميّةً، لا طلبيّة، صادرةً عن واحدٍ أحدٍ لا شريك له.

٢- إنّا أعطيناك الكوثر:

ضعوا أنفسكم الآن مكان عُتبة بن ربيعة، بليغِ قومه، وقد أرسلوه ليسمع من محمّد ﷺ ثمّ يعود إليهم بتقريرٍ عن هذا "الحديث" الذي "يدّعي" محمّدٌ أنّه يتنزّل عليه من السماء. لقد عاد عُتبة وقد سمع من الرسول ﷺ الآيات الثلاث عشرة الأولى من سورة (فُصِّلت) ليقول لقومه: "والله ما فهمتُ شيئاً ممّا قال إلاّ ذِكرَ الصاعقة"!!

هل أنتم متأكّدون أنّكم نجحتم الآن في تلبّس حالته وتصوُّرِ أنفسكم في مكانه وفي زمانه؟ حسناً، فماذا تفهمون لو سمعتم هذه الآية بآذانكم من محمّدٍ ﷺ وأنتم لا عِلمَ لكم بعدُ بالقرآن ولا بالإسلام؟

لا شكّ أنّكم ستتساءلون: مَن المتكلّم في (إنّا)؟ ومَن المخاطَب في (أعطيناكَ)؟ أو بالأحرى: مَن المعطي؟ ومَن المعطَى؟ وما طبيعة هذا النوع من العطاء؟ وما هذا "الكوثر"؟ إنّها تساؤلاتٌ كافيةٌ لتجعل من هذه الآية أمراً محيراً للعربيّ الذي يسمعها لأوّل مرة.

تصوّروا علامات الاستفهام التي سترتسم على وجوهكم لو استمعتم إلى المذياع ذات يوم وهو يقطع الأخبار فجأةً، ليبثّ هذه الرسالة القصيرة ومن دون أيّ تعليقٍ: (نحنُ سنبعث إليكَ بقَوْلَلٍ)؟ -لا تظنّوا أنّني أخطأت بالكتابة، فهي (قَوْلَل)-. ألن تقولوا في أنفسكم: من هذا الذي سيَبعث بالقَوْلَل؟ ومن ذلك الذي سيُبعث إليه القَوْلَل؟ ثمّ ما هذا (القَوْلَل) الذي سيُبعَث به؟ -طبعاً هي كلمةٌ صغتُها من (القليل) كما صيغ لفظ (الكوثر) من (الكثير)-.

وهل لاحظتم أنّني استخدمت في جملتي فعلاً مضارعاً، وليس ماضياً كما جاء في الآية (أعطيناك)، فلو أنّني قلت (بعثنا) لكانت حيرتكم أكثر وأشدّ: فأين هذا "الشيء" الذي "بُعِث به" إذا كان قد بُعث به حقّاً؟ ومع من بعثوه؟ ولمن سلّموه؟

لقد كان هذا، ولا شكّ، شأن الذين سمعوا الآية من العرب لأوّل مرّة، أفلا تظنّون معي أنّهم تساءلوا كما تساءلتم: وأين هذا (الكوثر) الذي (أُعطي)؟ وما طبيعته؟ ومَن أعطاه؟ ولمن أُعطي؟!

٣- فصلّ لربّك:

على ندرة ورود الفعل (صلّى) ومشتقّاته في الشعر الجاهليّ، فإنّ الاستعمال القرآنيّ له في هذه الآية يختلف عن استعمال العرب له في الجاهليّة، على ندرته، ليس في المعنى فحسب، بل في السياق اللغويّ أيضاً.

فالصلاة عندهم تكون "على شيء" وليس "لشيء" كقول الأعشى في الخمرة (ت٧هـ):

وقابَلَها الريحَ في دَنّها وصلّى على دَنِّها وارتسمْ

وقوله:

لها حارسٌ ما يَبرحُ، الدهرَ، بيتَها إذا ذُبِحت صلّى عليها وزمزما

بل إنّ الاستعمال القرآنيّ للفعل يختلف في هذه السورة عن استعماله في السور الأخرى. فمن أصل اثني عشر فعلاً في القرآن تكتفي ستّة أفعالٍ بنفسها فلا تتعدّى إلى شيء، كما في قوله تعالى:

- ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ ﴾ [آل عمران: ٣٩]

- ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴾ [القيامة: ٣١]

على حين تتعدّى خمسة أفعالٍ بالأداة (على) كقوله تعالى:

- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٦]

- ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٤]

أمّا في هذه السورة، وفي هذه السورة وحدها، فيتعدّى الفعل باللام، وهو رصيدٌ آخر يضاف إلى قائمة ما اختُصّت به سورة (الكوثر) دون باقي سور القرآن الكريم من خصائص لغويّة.

٤- فصلِّ لربِّكَ وانحَر:

وسوف تتساءلون هنا أيضاً، كما تساءل الأوائل: وأيّة صلاةٍ هذه؟ ومَن المخاطِبُ هنا، ومَن المخاطَب؟ وما هذا "النحر" الذي يتحدّث عنه؟ ولماذا يقترن بالصلاة؟

obeikan.com

حتى بعد مرور ألفٍ وأربعمائة عام على نزول القرآن الكريم، أكاد ألمح الآن في وجوه بعضكم تلك التساؤلات نفسَها، أو بعضَها على الأقلّ، ولا سيّما أولئك الذين قلّ أن عادوا إلى التفاسير لمعرفة أقوال العلماء والمفسّرين في أمثال هذه الآيات. فكيف إذن بذلك العربيّ الذي فوجئ بسماع القرآن في فترة تنزّله، وللمرّة الأولى في حياته، مهما عدّ نفسه، أو عدّه الآخرون، من البلغاء؟!

٥- إنّا . . فصلِّ لربِّك:

لقد بدأ الحديث في الآية الأولى موجَّهاً من الله تعالى، وبصيغة جمع المتكلّمين (إنّا)، وهو أمرٌ يتكرّر كثيراً في القرآن الكريم، بل إنّ هذه الصيغة الجمعيّة هي، كما ذكرنا، الأكثر في كتاب الله عندما يتحدّث تعالى عن ذاته.

ولكنّ الحديث يتحوّل فجأةً وبسرعةٍ في الآية التالية ليصبح كلامه تعالى عن نفسه في صيغة الغائب المفرد هذه المرّة: فصلِّ لربّك (أي: له هو) بعد أن توقّع المرء، وقد سمع في الآية الأولى:(إنّا)، أن يسمع في الآية التالية: فصلِّ (لنا) أو ربّما (لي).

إنّه نوعٌ أخّاذٌ من الالتفات، ما نزال نحسّ بغرابته إلى اليوم، وقد فاجأ القرآن به العرب الذين لم يعرفوا هذا الفنّ البلاغيّ من قبل، كما سبق أن أكّدنا في حديثنا عن (فنّ الالتفات) في الجزء الأوّل من البحث.

وسيصبح هذا الأسلوب أحد أهمّ السمات اللغويّة والبيانيّة للقرآن الكريم.

٦- إنّ شانئك هو الأبتر:

مرةً أخرى تتكرّر هذه الظاهرة القرآنيّة البارزة التي تتخلّى فيها الآية عن أيّ رابطٍ لغويٍّ يربطها بالآية التي سبقتها. وعلى رأس الروابط التى نبحث عنها هنا ونفتقدها طبعاً: الواو والفاء، ومن شأن القارئ العاديّ لهذه السورة أن يتوقّع أن تبدأ الآية هكذا: (فإنّ شانئك).

ثالثاً: السبائك القرآنيّة

أرى أنّ عليّ أن أعود للتذكير، بين الحين والآخر، بما قصدت بـ "السبائك اللغويّة" وقد جعلتُها أحد خمسة عناصر من جوانب التجديد الإعجازيّ في لغة القرآن الكريم.

لقد سبق أن تأكّدنا من سهولة تمييز لغة القرآن الكريم عن لغة البشر على أيّ متكلّم للعربيّة، حتى إن لم يكن هذا المتكلّم من الضالعين فيها، أو لو يكن ممّن قرأوا القرآن بأكمله، فما أسرع ما يميّز الإنسانُ العاديّ الجملةَ القرآنيّة لو خلطناها له بين عشرات الجمل البشريّة.

إنّ عمَلَنا في هذا الجانب هو كشف العلاقات اللغويّة التي تؤلّف بين مختلف عناصر العبارة، فيكون منها سبيكةٌ لغويّةٌ كاملةٌ، هي بمثابة لبِنةٍ في البناء اللغويّ العامّ، تتبعها سبيكةٌ أخرى وأخرى، حتى تتمّ الآية أو السُورة.

ومن السهل علينا أن نضع أيدينا في سورة (الكوثر) على سبائك قرآنيّةٍ ثلاث، وهي تشكّل في الحقيقة مجموع الآيات الثلاث للسّورة:

١- إنّا أعطيناك الكوثر:

هذا البناء اللغويّ ستميّزه الأذن التي تمرّست بلغة القرآن الكريم، بالسهولة نفسها التي تميّز بها أبنيةً لغويّةً قرآنيّةً أخرى قريبةً من هذا البناء، مع اختلافٍ طفيفٍ هنا أو هناك. وحاولوا أن تميّزوا معي بين هذه السبيكة والسبائك القرآنيّة الخمس التالية:

- ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف: ٢]
- ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأحزاب: ٧٢]
- ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ ﴾ [ص: ١٨]

- ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الفتح: ١]

- ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الإنسان: ٣]

طبعاً تشترك هذه الحالات مع آية (الكوثر) بأنّها تبدأ جميعاً بـ (إنّا) ويتلوها دائماً فعلٌ ماضٍ بصيغة المتكلّمين (نحن)، ثم تأتي بعد ذلك الاختلافات، الطفيفة ولكن الدقيقة، التي أصبح بإمكان معظمنا الآن تمييزها بسهولة. حاولوا أن تحلّلوا الآيات وتتأكّدوا من هذا بأنفسكم هذه المرّة، وسوف تتبيّنون كيف حافظت آية (الكوثر) على شخصيّتها واستقلاليّتها حتّى عن السبائك القرآنيّة القريبة منها.

٢- فصلِّ لربِّكَ وانحر:

إنّ اجتماع فعلَيْ أمرٍ في جملةٍ واحدة أمرٌ مألوفٌ في اللغة، ولكنّ غير المألوف هو مجيء أحد الفعلين لازماً لا يحتاج إلى مفعولٍ (فصلِّ) مع إلحاقه، رغم ذلك، بشبه جملة (لربّك)، ومجيء الثاني (انحر) متعدّياً، ولكن مع تجريده من مفعوله، أو أيّ ملحَقاتٍ يمكن أن تلحق به، ليصبح شكله بذلك شكل الفعل اللازم.

لقد اعتدنا إلحاق هذا الفعل الأخير بمفعوله الذي يمكن أن يكون (الذبيحة، أو الأضحية) أو غير ذلك، ولكنّه، على غير المتوقّع، تجرّد هنا من أيٍّ منهما. إنّ أقرب الآيات في ذهني لهذه الآية قوله تعالى:

- ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى ﴾ [آل عمران: ٤٣]

- ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ [النجم: ٦٢]

- ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق: ١٩]

فيتوالى في كلٍّ من الآيات الثلاث أكثر من فعل أمرٍ واحد، ومعظم هذه الأفعال لازم، باستثناء فعلٍ متعدٍّ واحدٍ على الأقلّ (واعبدوا)، ولكنّه تجرّد مع ذلك من مفعوله، فأصبح مُناظراً وقريباً في طبيعته للفعل اللازم قبله (فاسجدوا).

ورغم هذا التقارب فمن الواضح أنّ لكلٍّ من الآيات الأربع خصوصيّتها وسبكها المختلف عن الآيات الأخرى، ممّا يؤكّد شخصيّة آية (الكوثر) واستقلالها اللغويّ حتّى عن السبائك القرآنيّة القريبة منها، التي استقلّت كلٌّ منها بشخصيّتها أيضاً.

٣- إنّ شانئَك هو الأبتر:

سبيكةٌ قرآنيّةٌ متفرّدةٌ أخرى نستطيع تمييزها، ببنائها الإيقاعيّ الخاصّ: (إنّ عاملك هو الأعمل) عن أيّة سبيكةٍ أخرى غير قرآنيّة.

فاسم (إنّ) جاء على صيغة اسم الفاعل (شانئ) المضاف إلى ضمير المخاطب (شانئَك) ويتلوه ضمير الفصل أو التأكيد (هو)، ثم الخبر، وقد جاء اسمَ تفضيلٍ على وزن (أفعَل) مرتبطاً بال التعريف (الأبتر).

واجتماع هذه الصفات في جملةٍ واحدةٍ يجعل منها سبيكةً قرآنيّةً يمكن تمييزها بسهولةٍ حتى عن السبائك القرآنيّة الأخرى القريبة منها. لاحظوا اختلافها، مثلاً، عن الآية التالية:

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩]

فالآيتان، رغم اتفاقهما في عددٍ من الخصائص، تختلفان في أنّ اسم (إنّ) في الثانية لم يكن اسم فاعلٍ، والخبر لم يرتبط، كما حصل في الأولى، بـ "ال" التعريف، رغم مجيئه اسماً للتفضيل (أعلَم)، كما أنّه تعدّى إلى غيره (بالمعتدين) على حين انقطع (الأبتر) عن الإضافة أو التعدية. وبهذا تحتفظ آية (الكوثر) بشخصيّتها اللغويّة مستقلّةً عن غيرها من السبائك.

رابعاً: مواقع منفتحة

١- الكوثر:

إنّ المعاني الكثيرة التي اقترحها علماء اللغة والمفسّرون لهذا اللفظ، كما رأينا، والأحاديث الشريفة التي وردت فيه، والغنى الإيحائيّ الذي يكتسبه اللفظ من كلّ ذلك، يمنحه الأبعاد والشفافية التي تؤكّد صفته الانفتاحيّة.

٢- وانحَر:

هذا اللفظ -كما رأينا في حديثنا عن الألفاظ والمصطلحات- لا يقلّ عن اللفظ السابق غنىً وإيحائيّةً وتعدّداً في المعاني التي اقترحوها له.

خامساً: جوامع الكَلِم

إنّ شانئَك هو الأبتر:

من الحقّ أنّ هذه الآية جاءت ردّاً على المشركين والمنافقين الذين راحوا يتقوّلون الأقاويل على الرسول ﷺ، ويعيّرونه بانقطاع نسله من البنين.

ولكنّ صياغة الآية تمنحها خصائص الأمثال أو العبارات السائرة، فيمكن أن نستشهد بها في أيّ موقفٍ يَتّهم فيه مسيءٌ محسناً حين يكون المسيء أولى بهذه التهمة، فنقول للمحسن مطَمْئنين: لا تبالِ، إنّ شانئكَ هو الأبتر.